منزلة الشعر من التاريخ

(٣)

نظرة في ديوان حاتم الطائي

اذا تصفحنا ديوان حاتم الطائي وجدناهُ يخاطب الحارث بن عمرو ملك العرب بقولهِ

فككتَ عديًّا كلَّها من اسارها فأفضلُ وشفّعني بقيس بن جحدرِ

ابوهُ ابي والامهاتُ امهاتنا فأنعمْ فدتك النفس اهلي ومعشري

ويُستخلص من ذلك ان هذا الملك غزا عشائر من قبيلة واحدة وقد اورد حاتم اسماءها كما رأيت وادّعى ان احدى تلك العشائر وهي عشيرة قيس بن جحدر ذات صلة نسبية مع عشيرتهِ اقرب من سواها . فدلنا ذلك على انهُ من عشيرة لم يذكر اسمها في هذا المقام وذلك لان الملك لم يوقع بها فاذا اردنا معرفة اسم عشيرتهِ نجدهُ واردًا في قولهِ

بنو ثُعَل قومي فما انا مدّعٍ سواهم الى قوم ولا انا مُسنَدُ (١)

ومما يؤيد من اقوال هذا الشاعر حجة تاريخية قولهُ

وما زلتُ اسعى بين ناب ودارة بلحيان حتى خفتُ ان اتنصّرا

فانهُ دليل على وجود النصرانية بين العرب وقد ذكر ان القوم المنبثين بين نابٍ ودارة من النصارى . والمشهور عن حاتم انهُ كان نصرانيًّا ولعلهُ تنصّر بعد ذلك . وسواء ثبت تنصّرهُ او لم يثبت فان لنا من قولهِ دلالة واضحة على انهُ كان الينًا للنصارى

واذا تفقّدنا مغازي هذا المضياف الكريم حيث قال

ان كنتِ كارهةً معيشتنا هاتي فحلّي في بني بدر

الضاربين لدى اعنّتهم والطاعنين وخيلهم تجري

والخالطين نحيتهم بنضارهم وذوي الغنى منهم بذي الفقرِ

نجد في بيتهِ الاول دليلاً على ان العربي كان اذا شكا من عيشهِ شظفًا فارق عشيرتهُ فاقام في ديار غير ديار قومهِ مجادرًا عشيرة غير عشيرتهِ ونستدلُّ من ذلك على ان العرب مع احتفاظهم على العصبية واعتنائهم بحفظ الانساب اتمّ عناية وتوثقهم بوشائج القربى اكرم توثق كان آحادهم يفارقون احياءهم وعشائرهم اذا ضاهم ضيق مرتزق

ونجد في بيتهِ الثاني تمثيل احدى هيئات القتال المعدودة اظهر الدلائل على البأس

(١) المسند الدّعي او المدفوع من قوم الى قوم

والبراعة في فن الحرب عند العرب وهي الضرب بالسيوف وقد تزاحمت الفرسان والطعن بالذوابل وقد اوسعوا الكرّ في حومة الميدان . وقد أمَّ زهير بن ابي سلمى بهيئات القتال فذكرها على الترتيب هكذا

يطعنهم ما ارتمَوا حتَّى اذا اطَّعنوا ضارب حتى اذا ما ضاربوا اعتنقا

وهذا نصٌّ صريح بان الرماية من معدّات القتال وان انتشاب الوغى يُبدأ بترامي السهام والقومان في ابتعاد ثم بالرماح عن قرب ثم بالنصال في المصادمة فبالاعتناق بالايدي وقد تقصَّفت الذوابل وتكسَّرت المناصل وليس بعد ذلك الاَّ ورود كاس الحمام

ولم يكن شأن الرماية بالامر اليسير يدلُّك على ذلك تمرُّنهم عليها منذ الصغر أخذًا عن الحذَّاق فيها قال معن بن اوس المزني

اعلِّمهُ الرماية كل يومٍ فلما اشتدَّ ساعدهُ رماني

ومع كون السهام والرماح من عدد الهيجاء فالمنزلة العليا للسيوف قال ضرار بن الأزور

عشية لا تغني الرماحُ مكانها ولا النبلُ الاَّ المشرفيُّ المصمِّمُ (١)

ولنرجع الى بحثنا في شعر حاتم فنقول انَّ قولهُ

الخالطين نحيتهم بنضارهم وذوي الغنى منهم بذي الفقرِ

يستفادُ منهُ ان العرب (او قبيلة الممدوح) كانوا ينزلون الوضيع منهم وهو المعبَّر عنهُ بالنحيت بمنزلة الرفيع الذي دعاهُ بالنضار . والنحيت ما نُحِت وليس بجيد والنضار الاسل تعمل منهُ القداح . وكذلك تتساوى عندهم مرتبة الفقير بمرتبة الغني فلا ميزة بينهما الاَّ بالشجاعة وكرامة الفعال وشريف الخلال كما اوضح ذلك عروة بن الورد العبسي بقولهِ

ما بالثراءِ يسودُ كلُّ مسوَّدٍ مثرٍ ولكن بالفعالِ يسودُ

واختيار الوضيع منزلة الرفيع امرٌ دالٌّ على بلوغ المعدلة من احكامهم مكانة لا يتمتَّع بها الاَّ الشعب السامي المدارك الراقي اعلى ذرى الكرامة فكان نظامُ الأمة العربية في زمنها الجاهلي يفوق نظام الشعوب اليونانية في عهد عظمائها ومشترعيها كليكورغورس الذي كانت شريعتهُ تضع امتيازات عديدة بين طبقات رجالها تخوّلهُ ذوي الثروة حقوقًا خاصَّة . وكذلك نجد دستور الامة الرومانية غير منصف فانهُ لم يساوِ بين سوقتها واشرافها في الحقوق العامَّة ولطالما نشبت نيران الخصومة في منتدياتها وبين احزابها لاستئثار الاماثل بحقوق منعوها عن العامة بغيًا واعتسافًا عن محجَّة العدالة فنستدلُّ من ذلك على ان الامة العربية كانت تجري

(١) صمم السيف مضى في الحظم فقطعهُ فهو سيف مصمم

سنن الانصاف جريًا لا نظير لهُ في تاريخ الامم الأُخر

ولا خلاف ان الانصاف ناجم الأَنفة وعزّة النفس بدليل ما هو معلوم من أَن الاميال منصرفة الى الاستبداد فحيثما تكون تلك الاميال مكفوفة العيان لا شكَّ برجوع يدٍ قابضةٍ على زمامها قال المتنبي

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفّةٍ فلعلةٍ لا يظلمُ

واذا ثبت لنا القول ان اندفاع الاقيال على الظلم وامتناع القبول بالاضطلام ناجم عن علةٍ كان لنا ان نقول ان تلك العلة هي انفة عموم القوم من الصغار ورفضهم الانقياد للزعماء على وجه الاستعباد وتفويض امورهم الى ذوي الرأي لا على وجه الاستبداد . والمتحصل من ذلك ان العرب القدماء كانوا في مقدمة الأُمم في عزة النفس ومنعة الجانب

ولربما تراءى للقارىء بداءة بدء ان في كلامي تناقضًا وتضاربًا حيث يرى في ما اوردتهُ من شعر عبيد بن الابرص ان ملوك العرب كانوا يحكمون حكمًا استبداديًا وفي ما اوردتهُ من شعر حاتم انهم كانوا غير مستبدين . والجواب ان العرب كانوا قبائل ولكل قبيلة نهج وكما ان الشعوب اليونانية كانت مختلفة الاحكام فحكومة اثينا جمهورية وحكومة سبارته ملكية وكلتا الحكومتين يونانيتان كذلك كانت قبائل العرب ليست في حال واحدة من حيث الانقياد لرؤسائها

وقد كان حاتم الطائي كريم العرب المضروب بهِ الامثال ولهذا يُلم بالضيافة في شعرهِ كثيرًا كقولهِ

وابرز قدري بالفضاء قليلها يُرَى غير مضنون بها وكثيرُها
وليس على ناري حجاب يكنُّها لمستوبص ليلاً ولكنْ انيرُها(١)

وكقولهِ

ولا تستري قدري اذا ما طبختها عليَّ اذن ما تطبخينَ حرامُ
ولكن بهذاك اليفاع فأَوقدي بجزلٍ اذا اوقدتِ لا بضرامِ(٢)

علمنا مبلغ الكرم في نفوس جاهلية العرب وعرفنا مقدار ما كانوا يتحفزون لاكرام الضيف حتى انهم كانوا يوقدون النيران لاجل الاهتداء الى منازلهم مختيرين مواقعها في يفاع من الارض كما سبق الشاهد او في رأس جبل كما قال حماس بن ثامل

ومستنجرٍ سفى لج ليل دعوتهُ بمشبوبةٍ في رأس صمدٍ مقابلِ

واذا اضفنا الى اقوال حاتم السابق ايرادها بعض ماقالهُ عروة بن الورد العبسي في القرى كقولهِ

(١) استوبص من وبص اي لمع (٢) الجزل الغليظ من الحطب والضرام دقيق الحطب . وفي القاموس انهما

فراشي فراش الضيف والبيت بيتهُ ولم يُلهني عنهُ غزالٌ مقنَّعُ (١)
احدِّثهُ ان الحديث من القرى وتعلم نفسي انهُ سوف يهجعُ (٢)

استخرجنا من ذلك ان العرب كانوا يعدون محادثة الضيف بالبشاشة من واجبات القرى. وكانوا يجلسون لمسامرة ضيوفهم حتى يرين (٣) على عيونهم الكرى غير متشاغلين عن الضيفان بالانقطاع الى معاشرة العيال . وان الضيف ينزل بيت مضيفهِ آخذاً ملء الحرية كانهُ بيتهُ

وربما تخيَّل لبعض المطالعين ان في قول عروة " احدثهُ ان الحديث من القرى" ما يستفاد منهُ ان بعض العرب كانوا يعمدون الى مشاغلة الضيف بحديثهم حتى يغلب عليهِ النعاس فينام ولا يقدمون لهُ طعاماً عادّين الحديث معهُ قِرى فادفع هذا الوهم بما يقول حاتم

ولا أُزرِّف ضيفي ان تأوَّبني ولا ارافي لهُ ما ليس بالدانِ (٤)

وزرَّف الرجل لضيفهِ اكثر الكلام لهُ فشاغلهُ. وهذا نصٌّ على ان التزريف كان عندهم معيباً وانهم كانوا يسرعون اولاً الى اعداد الطعام ثم بعد ان يتناول الضيف كفايتهُ يأخذون في محادثتهِ . ولا يستقيم لنا فهمُ ذلك الاَّ متى جمعنا بين الاقوال السابقة وتمهَّدنا وجهاً نزيل بهِ الاشكال ويتقوَّم بهِ كل ما ورد

ونقتصر على هذا القدر في الضيافة ونتطرَّق الى ابحاث اخرى من شعر حاتم فقد ورد لهُ من ابياتٍ

ولا يُلطَم ابن العمّ وسط بيوتنا ولا تصبَّى عرسهُ حين يغفلُ

وهو دليل ان العرب كانوا يتزوَّجون من الاباعد لكي لا تفوي (٥) انسالهم ولتنجب ابناؤهم وان اخوة زوجاتهم واقرباءهنَّ كانوا ينزلون بين مصاهريهم فتُكرَم وفادتهم وتصان أعراضهم

ولا غرو اذا عددنا التزوُّج من الاباعد دليل الملاحظة الدقيقة في حفظ النوع والانتباه التام لتوفير وسائل النموّ والاعتناء في حفظ الصحة وكل ذلك لا يكون الاَّ عند الامم الحائزة على حظ وافر من سموّ المدارك . واقلُّ ما يُثنى عليهِ انهُ خير من تمدُّن بعض الممالك الآخذة في الاضمحلال لاطلاقها عنان الشهوات واغفالها وسائل نموّ الأُمة

ولم يتفرَّد حاتم بذكر الزواج من الاباعد فانَّ حكمة هذا المبدإ القويم كانت مشهورة عند قبائل عديدة وشواهدها في كلامهم كثيرة فمنها قول عروة بن الورد العبسي

هم عيَّروني ان امي غريبة وهل في كريم ماجدٍ ما يُعيَّرُ

(١) غزال مقنع اي حسناء (٢) يهجع ينام (٣) يغلب (٤) تأوبهُ اتاهُ ليلاً
(٥) فوى نحف وهزل وفي الحديث اغتربوا ولا تضووا اي تزوجوا في الاجنبيات ولا تتزوجوا في العمومة

وقولهُ ايضاً

اعيرتموني ان امي تريعة وهل يُنجِبَن في القوم غير الترائع

وفي هذا الكلام امران الاول الزيجة من الاباعد وقد ذكر عروة ان النجبات من العربيات والثاني تعييرهم عروة بان امهُ غريبة وهذا امرٌ لو حققنا باطنهُ لوجدنا وجه الشكوى منهُ منحرفاً عن وجهة الحقيقة وانما عيب لأن امهُ من قبيلة غير محمودة الفعال ونستدلُّ على ذلك من قولهِ

ومالي من عارٍ أخالُ عليهُ سوى انَّ اخوالي اذا نُسِبوا نهدُ
اذا ما اردتُ المجد قصَّر مجدهم فاعيا عليَّ ان يناسبني المجدُ
فياليتهم لم يضربوا فيَّ ضربةً وابي غيدٌ فيهم وابي عبدُ
ثعالبُ في الحرب العوان فان تبخ وتنضرج الجلَّى فانهمُ اسدُ[1]

ونستنتج من ذلك ان العرب كانوا يميزون بين القبائل فيقدمون بعضاً على بعض ويفاضلون بين احسابهم فيجعل شأن الكريم النبعتين على الكريم النبعة الواحدة . وقد ذكر عروة الوجه الذي بنت عليهِ القبائل حكم المفاضلة قائلاً انهُ الشجاعة كما يستخلص ذلك من البيت الرابع . ويؤيد قول عروة في تكريم الانساب قول عنترة العبسي المشهور

اني امرؤ من خير عبس منصباً شطري واحمي سائري بالمنصلِ

وكذلك ما صرَّح بهِ يزيد بن الحكم الكلابي في تفضيل الامهات حيث قال

مَسسْنا من الآباء شيئاً وكلنا الى نَسَب في قومهِ غير واضعِ[2]
فلما بلغنا الامهات وجدتمُ بني عمكم كانوا كرام المضاجعِ

ويتحصل من ذلك ان العرب كانوا يعترفون بصحة نسب المولود من ابٍ شريف وأمٍّ ليست من فرع شريف وهو انصاف لم يكن بعض الامم القديمة يدركونهُ على تقدمهم في المدنية كالامة الرومانية مثلاً التي نجد البند الخامس من اللوح الثاني عشر من الالواح المسطور عليها شريعتها ينصُّ صريحاً " انهُ لا يجوز للشرفاء ان يتزوَّجوا من العوام " بل ان هذه السنة لم تزل حتى الآن عند بعض امم عصرنا المتمدن وهو امرٌ ظاهر البطلان لأن الناس اجمعهم من اصلٍ واحدٍ فانَّى نجد بينهم تفاوتاً في النوعية الاَّ من الميزة بالآداب ومحاسن الاخلاق

فاعتراف العرب بان العقود التي تنشأ بين مختلفين مكانةً صحيحةً جائزة وبأنَّ ثمرتها نسل شرعي يرفع هذه الأمة الى اسمى درجات الحكمة امين ظاهر خير الله

(١) اراد بانهم ثعالب اي رواغون كناية عن الذلة و باحت الحرب خدت وانطفأت
(٢) يقال مست بك رحم فلان اذا كان يمتكا قرابة